



ألم يحظ يهود المغرب بحماية سلاطينه؟! ألم يتمتعوا بكامل حقوق المواطنة؟! ألم يتبوؤوا أعلى مناصب الدولة؟! لقد كان حفص داعية إلى السلم والتعايش والاحترام المتبادل المبني على الحكمة واليقظة، لا على الجهل والامية (ص ١٢٣-١٢٤)، وله مواقف دان فيها قتل الأبرياء من المسيحيين في السوق المركزي بالبيضاء عشية عيد ميلاد المسيح عليه السلام بسبب عبوة ناسفة (ص ٦٥)، كما استنكر اقتتال المسلمين واليهود اقتتال الأعداء الألداء بعد أن كانوا إخواناً أحياء، وتمنى لو أن كائنات غريبة اجتاحت كرتنا الأرضية حتى يتحد بنو البشر لمواجهتها (ص ١١١). إذا كانت هذه حال المسلم، فكيف هي حال اليهودي؟ إن اليهودي معروف بالكيد والخيانة والتملق والعمالة... (ريمون البقال أنموذجاً) ميال إلى الفساد والفسق والدعارة (الربوي الإسرائيلي أنموذجاً)، غير أننا لا نعدم وجود طائفة مؤمنة، مقتصدة، صالحة، متسامحة، محبة للسلام... قال تعالى «ولو أمر أهل الكتاب لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون...» آل عمران ١١٠ «ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة واحدة، يقولون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون» آل عمران ١١٣-١١٤ «ولأننا نطلع على خائفة منهم إلا قليلاً منهم» المائدة ١٣ «قال جبران من الذين يخافون أنعم الله عليهما، أدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون» المائدة ٢٣ «منهم أمة مفصدة» المائدة ٦٦ «وقطعناهم في الأرض أهماً منهم الصالحون» الأعراف ١٦٨.

فتلك فورتونا Fortuna حبيبة حفص المخلصة، وهذا يوسف صديقه الوفي وفاء جعلهما لا يكادان يفترقان، لقد كانا يشتركان في كل شيء ويقتسمان كل شيء، وأسهمت علاقتهما في تقارب أسرتهما على الرغم من اختلاف الديانة واللغة والعوائد... بله إن أواصر القرى موجودة في الأصل، أليس أبناء عمومة؟! ألم ينحدرا من جد واحد هو إبراهيم عليه السلام؟! ألا يشتركان في شعائر عديدة وتقاليد كثيرة؟!...

لقد كانت علاقة المسلمين باليهود قبل النكبة - أعني العراك الذي دار بينهما، وهو عقدة الرواية - علاقة طيبة للغاية، يطبعها التعاون والتضامن والتكافل في مواجهة المحن والشدائد كما وقع عند حادثة الطوفان الذي اجتاح القرية (ص ٢٨-٢٩).

غير أن الحال سرعان ما تغير إثر المواجهة الدامية التي جرت بينهما (ص ١٠٤-١٠٦) بعد مقتل العجوز لالة عالية - المرأة المسلمة الصالحة عند مسلمي القرية - التي أهانت اليهود، حيث قرر بعض هؤلاء الرحيل عن القرية

السلام مع اليهود في الرواية الإسلامية المغربية



بقلم: د. خالد الدادسي بن الحبيب
المغرب

كثيرة هي الدراسات العلمية والأعمال الإبداعية التي تناولت موضوع التسامح والتآخي والتفاهم والسلام بين الأفراد والشعوب والأديان عامة، وبين اليهود والمسلمين خاصة، ومن جملة هذه الإبداعات الفنية رواية الأستاذ إدريس الدادسي^(١) «في ظل الكتب المقدسة»^(٢) التي نسجت بلغة محبوكة، وصيغت بنثر فني بليغ..

إن المسلم - أي مسلم - سمح بعقيدته، سمح بطبعه، إنه يتلقى معاني التسامح والسلام والمحبة والوثام والانفتاح واحترام الآخر كيفما كان دينه ولغته وجنسه ولونه وعرقه.. ويتشرب القيم الإنسانية العليا منذ صغره مثلاًما حصل لحفص بطل الرواية.

التي ولدوا ونشؤوا بها خوفاً على حياتهم وممتلكاتهم من انتقام المسلمين، ومن تنامي مشاعر الكراهية وأعمال العنف نحوهم (ص ١٤٩-١٥٣)، وأفتى إمام المسلمين بمقاطعة مبيعاتهم في المزار العلني (ص ١٥٤-١٥٥).

هل كانت علاقة المسلمين باليهود بهذا القدر من الهشاشة لتنهيار بسرعة؟^(٣) ما مصلحة المسلمين في إشعال فتيل الصراع مع اليهود؟ ألا يكون وراء ما حدث دافع وطني؟ هل الحب كفيلاً بتحقيق التعايش؟ هل يمكنه أن يحو الفوارق ويذيب الخلافات؟ هل يستطيع أن يعيد للقرية سكنتها وأمنها؟..

في رأي صاحب الرواية، أن الحب يمكنه أن يفعل ذلك!

لقد استطاع الحب أن يؤلف بين قلبي حفص المسلم الفقير - وما حفص إلا الروائي نفسه - وفورتونا اليهودية الميسورة الحال البارة الجمال الحسنة الخصال...

فهذا حفص - بطل الرواية - يجد مأمنه بين يدي حبيبته ويفصح لها في رسالة بعث بها إليها عن مودته وشوقه العارم لرؤيتها (ص ١٢٣-١٢٤)، فتبادلته عشيقته - مجيبة - حبا بحب ووجدأ بوجد وتحلم برقته وابتسامته محاولة رسم صورته في ذاكرتها بعد رحيلها عن القرية (ص ١٦٠-١٦١).

لكن، ما الحل إذا كانت فورتونا تصرح لحفص بأن حبها مستحيل؟ هل كانت صادقة فيما تقول؟ هل جانبك المنطوق؟

لا أعتقد ذلك. إن العواطف لا ترد المظالم، وإن الأمانى لا تعيد الحقوق إلى أهلها، وإن مشاعر الحب المتبادل بين فردين لا يمكنها أن تمحو الخلاف بين طائفتين، وإن ساعدها على التقريب بينهما.

إننا لا نستبعد أن يكون ما حدث رد فعل لتواطؤ اليهود أو بعضهم (ريمون البقال وموسى Moise بائع الجملة أنموذجان) مع ممثل الاحتلال الفرنسي الغاشم في القرية السيد هوبيرت Hubert قائد الدرك؛ وإلا فما الداعي إلى اختيار طور الحماية فضاءاً للرواية والحديث عن نفي ملك المغرب المرحوم محمد الخامس، طيب الله ثراه، وذكر

أخبار حركة المقاومة المسلحة؟.

وغير خاف أفعال بعض يهود المغرب غير الوطنية في حق بلدهم على عهد الحماية من تغيير الجنسية وتهريب العملة والهجرة إلى الخارج، وعدم المشاركة في المظاهرات الشعبية ضد الاحتلال^(٤).

فلا سبيل إذن إلا القصاص، ولا سلام ولا تعايش إلا برد المظالم واستعادة الحقوق.. أيعقل أن يطالب شعب اغتصبت أرضه وقتل أبناؤه واستبيحت نساؤه وأهينت كرامته ونهبت خيراته ودنست مقدساته وديست حرمانه.. أيعقل بعد كل هذا أن نطالبه بالسلام والتعايش والتطبيع؟! إن لالة عالية التي قتلت ظلماً وعدواناً بأيدي اليهود ليست - في نظري - إلا رمزاً لحرمان المسلمين وفي مقدمتها القدس الشريف المغتصب والمسجد الأقصى المنتهك.

فهل يذهب دم لالة عالية هدراً؟ نعم للسماحة، نعم للعفو، نعم للين والصلح والحوار والتساكن... لا للعصبية والتطرف والعنف والتدابير والتنافر... ولكن لا عفو إلا بعد توبة، ولا صفح إلا باعتذار... ولا تسامح في المعتقدات وفي المقدسات... فما أعجب إلا من صاحب حق يهرول إلى موائد الاستسلام والخنوع والانبطاح!

إن السلم لا يعني الضعف أو التنازل أو مهادنة قوى الشر... وإنما يعني الأمن والطمأنينة والاستقرار... ومادام السلام لا يتحقق إلا بين اثنين فهو إذن سلوك متبادل.

كما أن السلم لا يعني كذلك التفريط في الجهاد وإماتة روح المقاومة ونبذ القتال بدون سبب والتخلي عن العقاب بلا ثمن... وإلا ضاعت حقوق الناس وانتفى العدل وكانت فتنة في الأرض وفساد كبير.

إن هذا السلم الذي يقام على حساب الحقوق ويؤخذ مقابل المبادئ لهو الهوان والدناءة والوهن والذل بعينه... إن السلام الذي نريد إنما هو سلام الشجعان، سلام الأقوياء، سلام الأعزة، سلام الكرام، سلام الأوفياء لأن السلام مقدس، فوجب من ثم صيانته والمحافظة عليه والوفاء به.

الهوامش

(١) إدريس الدادسي بن الحبيب خبير في الاقتصاد لدى منظمة اليونسكو والمجلس الأوروبي، مستشار بهيئة الأمم المتحدة،

بجنيف، أستاذ الاقتصاد والإحصاء بجامعة باريس، سابقاً. يعمل حالياً مدير ديوان وزير التشغيل والتضامن، الناطق الرسمي باسم الحكومة، له مؤلفات كثيرة باللغة الفرنسية.

٢- انظر على سبيل المثال كتاب:

محمد الخامس واليهود المغاربة - روبير أصراف - ترجمة علي العقلي ومحمد كلزيم - ط ١٩٩٧.

٣- راجع كتاب: يهود المغرب ١٩١٢-١٩٤٨ - محمد كنيبيب ترجمة إدريس بنسعيد تقديم أندري

أزولاي منشورات كلية آداب الرباط ط ٩٨/١.

٤- المرجع السابق.

« من الأدب الإسلامي المكتوب بالفرنسية قراءة في رواية «في ظل الكتب المقدسة».